

الفصل الرابع

عالمية القرآن وكونه منهاجاً لحياة الإنسان

إن الله تعالى أنزل القرآن الكريم ﴿بَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، كما قال مُنزله سبحانه. فهو منهاج للفرد، ودستور للجماعة، منهاج عملي يتضمّن الأصول المُوجّهة لحياة الفرد، وعلاقته بالرب سبحانه، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته وجيرانه ومجتمعه، وعلاقته بأمة المسلمة، وعلاقته بالآخرين من غير المسلمين، مِمَّنْ يُسَالِمُونَهُ وَمِمَّنْ يُحَارِبُونَهُ.

1 - علاقته بالله تعالى: أن يعرف أنه رب العالمين، خالق كل شيء، وأنه خلق الإنسان لعبادته وطاعة أوامره واجتناب معاصيه، يعبده ولا يشرك به شيئاً:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الْإِيمَانَ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۗ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۗ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۗ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الزمر: 11-15].

وقد بيّن القرآن أن الله خلق الكون بسماواته وأرضه ليعرفه الناس بأسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]. فإذا عرفوا الله تعالى توجّهوا إليه بالعبادة، التي خلقهم لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: 56]. وتمثل هذه العبادة في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وذكر الله ذكراً كثيراً، وتسيحه بكرة وأصيلاً. ولا تتم هذه العبادة إلا بأن يُجَلَّ ما أحلَّ الله، ويُحَرَّم ما حَرَّمَ الله، وأن يقف عند حدود الله في أمره ونهيه، قائلاً: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285].

وعلاقته بالكون: أن يتأمله وينظر فيه ليهتدي به إلى خالقه ومبدعه: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 101]. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿الأعراف: 185﴾. ثم يستخدمه فيما يعينه على مهمته.

إنها علاقة الخليفة بما استُخْلِيفَ فيه وما سُخِّرَ له. فهذا الكون عُلوِيه وسُفْلِيه سُخِّرَ للإنسان ليستخدمه وينتفع به، ويعمر أرضه، ويحكم فيه بالحق والعدل. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13]. وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: 20]. وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. وقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. ومعنى ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ﴾: أي طلب إليكم أن تعمروها.

ولا يجوز في منطق القرآن أن ينقلب الكون - الذي هو مسخر للإنسان - إلى إله معبود للإنسان، كما فعلت الوثنيات المختلفة، التي قلبت الحقائق، وأضلت الإنسان عن سواء السبيل.

2 - وعلاقة الإنسان بالحياة الدنيا: أن يتَّخِذَهَا مَرْزَعَةً للحياة الأخرى، وأن يستمتع بطبيعتها دون أن يجعلها له غاية، وأن يعمل لدنياه كأنه يعيش فيها أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً، وبذا يجمع الحسنتين، ويسعد في الدارين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. ﴿رَبَّنَا مَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]. وفي وصية قوم قارون له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصاص: 77].

وبهذا ينهج المسلم النهج الوسط، بين الماديين الذين يقولون: ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَعْمُورِينَ﴾ [الأنعام: 29]. وبين المغالين في المثالية، مثل البرهمية الهندية، أو البوذية الصينية، أو المانوية الفارسية، أو الرواقية اليونانية، والرهبانية النصرانية، وغيرهم من الذين حَرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ، وعَطَلُوا مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ من طاقات لم يستغلوها في عمارة الحياة.

3 - وعلاقة الإنسان بنفسه: أن يُوجِّهَ قواها كلها في عبادة الله وطاعته، بطلب

الحق، وفعل الخير، ومجاهدة الباطل والشر، وأن يوازن بين مواهبها وملكاتهما.

والصراط المستقيم: أن يُزَكِّي عقله وروحه، ويجمع بين الأمرين: العلم والإرادة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

ولهذا عني القرآن بالدعوة إلى العقل والفكر، في آيات لا تكاد تحصى. ويكفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى شَاخٍ وَإِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ الْوَحِيدِ﴾ [سبأ: 46].

كما عني بالدعوة إلى تزكية النفس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7-10].

4 - وعلاقة الإنسان بأسرته: رسمها القرآن في مثل قوله تعالى في العلاقة الزوجية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]. ﴿هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187]. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228].

كما رسم علاقة الأولاد بوالديهم في مثل قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيَةً وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 23-24]. ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15].

وأشار إلى علاقة الآباء بأولادهم بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا أَوْلَدْنَا كَسِيَ الْكُفْرُ وَكَانَ غُرْحًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [الإسراء: 31]. وبمثل دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

والأسرة في نظر القرآن هي الأسرة الواسعة الممتدة التي تشمل الإخوة والأخوات، بل الأعمام والعمات، والأخوال والخالات، من أولي القربى والأرحام، وقد قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75].

5 - وعلاقته بجيرانه وجماعته المسلمة من حوله: رسمها في مثل قوله تعالى في

آية الحقوق العشرة: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

كما رسمتها آيات أخرى كثيرة، وضعت الآداب الرفيعة التي ترقى بالناس في تعاملهم بعضهم مع بعض من أدب الخطاب، وأدب المشي، وأدب المجلس، وأدب التزاور، وغيرها.

اقرأ قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [١٨] وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [١٩] [لقمان: 18-19].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ فَتَسَّحَرُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْفَسَحُوا فَاسْفَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [٢٧] فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ﴾ [النور: 27-28].

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَّمَّا يَصْنَعُونَ﴾ [٣٠] وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 30-31].

6 - وعلاقته بأئمة الكبرى - أمة الإسلام - : أن ينصح لها، ويعتبر نفسه جزءاً منها، يعطيها ويأخذ منها، ويغار عليها، ويذود عنها، داعياً إلى الخير أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مُجاهداً في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71]. ولالأمة كلها حق عليه - وخصوصاً الضعفاء من فئاتها المختلفة، مثل اليتامى والمساكين وابن

السبيل - كما قال تعالى: ﴿وَأَتِذَا الْقُرُوفِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26] وقال تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: 7].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُلًا﴾ [الإسراء: 34].

وعلى الإنسان المسلم أن يكون ولاؤه لأمته، المُتَّبِع من ولائه الله ولرسوله، وأن يُعادي مَنْ يُعاديها، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: 1].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: 55-56].

7 - وعلاقته بالآخرين من غير المسلمين: رسمتها آيتان من كتاب الله هما بمثابة الدستور في تحديد العلاقات بين المسلمين وغيرهم. يقول تعالى في سورة الممتحنة:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولُوا أَن تَقُولُوا وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَآوَلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [المتحنة: 8-9].

فلمسالمين من غير المسلمين: القسط، وهو العدل الذي يحبه الله ويحب أهله، والبر، وهو الإحسان، وهو أمر فوق العدل.

أما غير المسلمين - ممن قاتلوا المسلمين في دينهم، وأخرجوهم من أوطانهم - فلهم ما يستحقونه من الجهاد ومناصبه العدا، ورفض الولاء: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَآوَلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وفيهم يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

وإذا كان المسالمون من غير المسلمين، لهم البر والإقساط بصفة عامة، فإن لأهل الكتاب منهم بصفة خاصة حقاً أوكداً، وصلة أوثق. وحسب أن القرآن أجاز

مؤاكلتهم ومصاهرتهم، أي أكل ذبائحهم، وتزويج نسائهم، وفي هذا ما فيه من توثيق
 عرا المودة: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا
 مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: 5].

القرآن دستور الحكم للناس

وكما أن القرآن منهاج لحياة الإنسان المسلم، فهو كذلك منهاج، أو دستور للحكم وللسياسة في حياة الجماعة الإسلامية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ﴾ [النساء: 105].

وإذا كان من شأن الدستور أن يتضمن القواعد الأساسية والتفصيلات، فكذلك القرآن: اهتم بإرساء الأصول والركائز للسياسة والحكم الإسلامي.

وأول هذا الأصول: الإيمان والرضا بالله تعالى حاكماً لعباده، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54] فهو وحده الرب الخالق الذي يملك حق التشريع لعباده وحق التحليل والتحرير، وليس لأحد سواه من مخلوقاته أن ينازعه هذا الحق، فيتعبد الناس ويخضعهم لحكمه وسلطانه، وما الحاكم في الأرض إلا مسؤول عن تنفيذ حكم الله في الناس، والله وحده هو الذي يُجَلِّ لهم، ويُحَرِّم عليهم، يأمرهم وينهاهم. ونعني بهذه الحاكمة: الحاكمة الأمرية التشريعية العليا. أما التفصيلات والتطبيقات الآتية والبيئية، فهي متروكة لاجتهاد المجتهدين، وعقول المسلمين، لا حجر عليهم فيها، ولا إلزام لهم بشيء، إلا أن يكون اجتهادهم في ضوء الأصول المرعية المقطوع بها. وبذلك تُرَدُّ الظنَّيات إلى القطعيات، والمُتَشَابِهَات إلى المُحْكَمَات.

والقرآن ذاته هو الذي أوجب الإيمان بهذه الحاكمة الإلهية، كما قال تعالى: ﴿أَفَسِيرَ اللَّهِ أَتَّبَعِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

وقال على لسان يوسف: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَلْفَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 40].

وينكر القرآن على جماعة من المنافقين صدودهم عن حكم الله تعالى ورسوله،

مع ادعائهم الإيمان، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٧﴾﴾ [النساء: 60-61]... إلى أن يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 60 - 65].

فتراه قد وصف هؤلاء بالنفاق، وأقسم على نفي الإيمان عنهم حتى يرضوا بحكم رسول الله ﷺ، ومن باب أولى الرضا بحكم الله جل شأنه.

وفي سورة أخرى يصف جماعة أخرى تأخذ من حكم الله ما يُعجبها ويروقها، أو ما ترى أنه في صالحها، وترفض ما ليس كذلك، وليس هذا شأن المؤمنين. يقول تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعَبِينَ ﴿٤٩﴾ أَلِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِصِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَلَّا يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِالظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: 47-51].

فنفى الله عنهم الإيمان بقوله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم بين حقيقة موقف المؤمنين، وهو السمع والطاعة لحكم الله ورسوله.

الحكم بما أنزل الله:

وإذا كان مفروضاً على المؤمنين أن يُذعنوا لحكم الله ورسوله، وأن يقولوا إذا دُعوا إليه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حتى يفوزوا ويفلحوا، فكذلك يجب على الذين يتولون الحكم أن يحكموا بما أنزل الله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 48].

وقال ﷺ: ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ

عَنْ بَعْضِ مَا أُنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿[المائدة: 49]. ومعنى هذا: أن تحكيم (جميع ما أنزل الله) فريضة، ولا يجوز في منطق الإيمان قبول بعض أحكام الله المنزلة ورفض بعضها. ولهذا حذّر من الذين يُحاولون أن يفتّئوه عن بعض ما أنزل الله، حتى لا يقع فيما وقع فيه أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، فقرّعهم الله على ذلك تقرّيعاً بليغاً.

وَأدّعى بعضهم أن الذين أمر الله رسوله أن يحكم بينهم بما أنزل الله هم أهل الكتاب، كما يدلّ سياق الآيات في سورة المائدة، وليسوا هم المسلمون!! وهذه الدعوى عجيبة! إذ ليس من المعقول أن يحكم بين اليهود والنصارى بما أنزل الله من القرآن، ولا يحكم به بين المسلمين بالقرآن الذي أنزله الله عليهم، وشرفهم به، وأمرهم بتلاوته وحفظه واتباعه والإذعان لحكمه!!

ومثل ذلك يُقال عن الآيات التي جاءت في هذه السورة نفسها، دامغة من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر، والفسوق، والظلم في آيات ثلاث في سياق واحد، لا مهرب منها. وكما قال الشاعر:

فلو كان رمحاً واحداً لأتقيته
ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالث!

وأعني بهذه الآيات قوله تعالى بعد حديث عن التوراة وأهلها: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]. وبعد حديث عما كتبه الله من قصاص في التوراة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]. وبعد حديث عن الإنجيل قال: ﴿وَلَيَحْكُرْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

وقد تملّص بعضهم من الحكم الدامغ الحاسم الذي تضمّنته هذه الآيات، بأنه جاء في شأن أهل الكتاب، ولم يجرى في شأن المسلمين!

يريد هؤلاء أن يقولوا: إنّ ما أنزل الله على أهل الكتاب في التوراة والإنجيل يجب القضاء به والنزول على حكمه، وإذا لم يفعلوا ذلك كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين، أو جامعين بين هذه الصفات. أما ما أنزل الله على المسلمين، فليس فرضاً عليهم أن يحكموا به، وإذا أعرضوا عن الحكم به لم يوصفوا بما وصف به أهل الكتاب المعرضون عما أنزل عليهم، من الكفر والظلم والفسوق!!

ومقتضى هذا: أن ما أنزل الله على المسلمين هو دون ما أنزل الله على أهل الكتاب! إذ يجوز للمسلمين أن يفرطوا فيه، وينأوا بجانبهم عنه، ولا يُتَّهَمُوا بِكُفْرٍ وَلَا ظُلْمٍ وَلَا فِسْقٍ، بخلاف أهل الكتاب! فهل يقول ذلك عاقل؟! هل يُعْتَبَرُ القرآن المعجز المبين الخالد المحفوظ أقلُّ قدرًا عند الله من الكتب الأخرى التي لم تتصف بالإعجاز ولا الخلود؟

أو يريد هؤلاء أن يقولوا: إن أهل الكتاب إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم، وُصِفُوا بالكفر أو الظلم أو الفسوق، أو بها جميعاً، أما المسلمون إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم، فلا يوصفون بذلك؟! ومعنى هذا الكلام: أن الله تعالى يكيل بكيلين: كيل للمسلمين وكيل لغير المسلمين، فرغم وَخْدَةِ الجريمة عند الفريقين لا يَتَّحِدُ الجزاء والحُكْمُ عليهم. كأن الله تعالى يحابي المسلمين، وَيُسَدِّدُ على غير المسلمين، فأين عدل الله؟ وهو القائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123].

وهذا ما لاحظته الصحابة رضي الله عنهم وأنكروه بعبارات بليغة على من قاله، فقد سمعت هذه المقولة في عصرهم: أن الآيات في أهل الكتاب!

روى أبو جعفر الطبري في تفسيره: أن رجلاً سأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن آيات سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾... ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾... ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾، وقيل لحذيفة: إنها في بني إسرائيل. فقال حذيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، أن كانت لهم كُلُّ مَرَّةٍ، ولكم كل حُلُوة⁽¹⁾!

على أن المُحَقِّقِينَ من علماء الأصول ذهبوا إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإذا كان السبب هنا خاصاً بأهل الكتاب فاللفظ عام ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ﴾ بحيث يشملهم ويشمل غيرهم ممن يشاركونهم وصفهم.

(1) تفسير الطبري: الأثر رقم (12030) وقد روى نحوه الحاكم في «مستدرکه» 2/ 312، 313. وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وهذا واضح من الاستعمال اللغوي حتى خارج القرآن. فإذا افترضنا أن حاكماً خانَ وَطَنَهُ، وَوَالَى عَدُوَّهُ، فثار عليه الشعب وخلعه، وقلنا في ذلك: فلان خان وطنه فثار عليه شعبه، ومن خان الوطن ثار عليه الشعب، فالجملة الأولى خاصة بفلان هذا، ولكن الجملة الأخيرة لها صفة العموم بحيث يدخل في حكمها كل خائن لوطنه.

وهناك مَنْ يقول: إن الحُكْم المراد هنا هو حُكْمُ القُضَاة الذين يَفْصِلون بين الناس، ولا يدخل في ذلك الأمراء والرؤساء والملوك الذين يُدِيرُونَ دَقَّة السياسة الداخلية والخارجية على غير ما أمر الله!!

وهذا أمر لا ينقضي منه العجب! لماذا يكون القاضي الذي لا يحكم بما أنزل الله كافراً أو ظالماً أو فاسقاً، والأمير أو الرئيس الذي يَسُوسُ الناس بغير ما أنزل الله مُبْرَءاً من ذلك؟ الحق أن كليهما لم يَحْكُم بما أنزل الله.

ثم إنَّ الرئيس أو الأمير هو الذي يُعَيِّنُ القاضي، ويلزمه أن يَحْكُمَ بالشرع أو القانون الوضعي، فهو - من باب أولى - داخل فيما ذَكَرْتُهُ الآياتُ الكريمة. فهو يَبِوءُ بوزره ووزر من ولاء القضاء بغير ما أنزل الله.

ومثل ذلك المجالس التشريعية والبرلمانات التي تَسُنُّ للناس القوانين والدساتير والتشريعات، فإن كانت مُسْتَمَدَّة من القرآن، فهم مُتَابِعُونَ مَأْجُورُونَ، وإن كانت مخالفة للقرآن، فعليهم وزرها ووزر من عمل بها.

وهذا ما ذهب إليه كل فقهاء العصر: ومنهم العلامة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت⁽¹⁾، وغيره.

ماذا أنزل الله؟

ويحسن بنا أن نُنبِّه هنا على معنى يغيب عن الكثيرين ممن كتبوا في هذه القضية، وهو: ما المقصود بـ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الذي نطقت به الآيات التي أوردناها من سورة المائدة؟ الكثيرون يفهمون منها: النص الإلهي الذي أنزله الله على رسوله، وهو

(1) انظر: «الفتاوى» للشيخ شلتوت، ص: 43 طبعة (دار الشروق) الثامنة.

بالنسبة لنا - نحن المسلمين - القرآن الكريم. وهذا صحيح بلا ريب، فهذا الكتاب قد أنزله الله تعالى على رسوله، كما بينت ذلك الآيات الوفيرة من كتاب الله: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: 41-42]. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: 114]. ﴿إِنَّهُمْ لَقَرَأَنُ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة: 77-80]. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: 23].

إلى غير ذلك من الآيات في مكي القرآن ومدنيته، وهي قاطعة بأن القرآن منزل من عند الله تبارك وتعالى. ولكن الله تعالى كما أنزل «الكتاب» أنزل «الميزان». ف «الكتاب» يُمثل النص الإلهي الذي يُرجع إليه في وضع الأسس، وتبيين الأصول، ورسم المنهج. و«الميزان» هو الذي يُرجع إليه في شرح تلك الأسس والأصول وتطبيقها على الواقع. فهو يجسد ما تشهد به الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، والأقيسة الصحيحة، من إقامة العدل، وعزس الفضائل، وتيسير الحياة الطيبة للناس، والحفاظ على الثروة المادية والبشرية، وعلى البيئة وغيرها.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: 17]. وقال ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

وفي سورة الرحمن يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَقْلُوبُوا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: 7-9].

فما هذا «الميزان» الذي قرنه الله تعالى بالكتاب حيناً، وقرنه برفع السماء حيناً آخر، وأمرنا ألا نطغى فيه ولا نخسره، وأن نقيم الوزن بالقسط؟ هل هو الميزان الحديدي الذي توزن به البضائع؟

ذهب إلى ذلك بعض المُفسّرين، ولكن هذا يُقرّن بالكيل لا بالكتاب، ثم لا يبلغ شأنه مبلغ الميزان المذكور في مطلع سورة الرحمن، والمقرون برفع السماء ممكن الملائكة، ومصدر الوحي الإلهي.

لا بد أن يكون إذن ميزاناً معنوياً تُوزن به الأفكار لا الأشياء، والحقائق لا الحقائق، والمعاني لا الصور، ميزاناً تُقوّم به العقائد والأخلاق والأعمال والأشخاص، والأنظمة والمذاهب.

وأقرب عبارة لتحديد معنى هذا الميزان والله أعلم بمراده: أنه العَدْلُ، والفِطْرَةُ المليمة، والقيّم والمقاييس الإنسانية المليمة التي تهتدي بالكتاب الإلهي لمعرفة الحق، قياساً للأمر بنظيره، ورداً للفرع إلى أصله.

وقد جاء عن قتادة ومجاهد وغيرهما من المفسّرين أن الميزان في الآية: هو العدل. واختاره ابن جرير شيخ المفسرين، وأيده ابن كثير قائلًا⁽¹⁾: وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة. كما قال تعالى: ﴿أَفَنَنْكَرَ عَلَىٰ يَدَيْهِ وَيَنْمُنَّ بِرَبِّهِ وَيَكُلُّهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: 17]. وقال تعالى: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]. وقال بعض الحكماء: «العدل ميزان الله في الأرض، وضعه للخلق، ونصبه للحق».

وبهذا نعلم أن الشرائع السماوية كلها جاءت لتضع للناس ميزاناً خُلِقِيًّا ثابتاً، غرس الله تعالى أصوله في فِطْرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، ميزاناً يتحاكمون إليه، إذا أعوزهم النص من الكتاب الإلهي.

وبهذه الآية استدلّ الفقهاء الذين يستعملون الرأي والقياس في معرفة الأحكام الشرعية، وبيّنوا أن النص الصريح لا يخالف القياس الصحيح، وأن الشرع لا يُفرّق بين متماثلين، كما لا يسوّي بين مُخْتَلِفَيْن. فقد ثبت أن الله أنزل «الكتاب والميزان» فكلاهما في الإنزال أخوان، وفي معرفة الأحكام شقيقان. وكما لا يتناقض الكتاب في نفسه فالميزان الصحيح لا يتناقض في نفسه، ولا يتناقض الكتاب والميزان، فلا

(1) «تفسير ابن كثير» 4/414 طبعة عيسى الحلبي.

تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ولا دلالة الأقيسة الصحيحة، بل كلها تتصادق متعاضة متناصرة، يصدق بعضها بعضاً، ويشهد بعضها لبعض، فلا يناقض القياس الصحيح النص الصحيح أبداً.

وبهذا نعلم أن الله تعالى كما أنزل «الكتاب» أنزل «الميزان». ولذا يجب أن نحكم بهما كليهما. وبهذا يلتقي الوحي والعقل، أو الدين والعلم، ليكوّن منهما «نور على نور».

القرآن دستور الدعوة إلى الله

والقرآن له وظيفة أخرى في الحياة الإسلامية، إلى جوار كونه منهاج العمل لحياة الفرد المسلم، وقانون الحكم والتشريع للمجتمع المسلم، أو للدولة المسلمة، هو كذلك دستور الدعوة إلى الإسلام.

عالمية القرآن:

فهو كتاب عالمي، مُوجّه إلى الناس كافة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، وإن نزل بلسان العرب. ومن قرأه وتدبره يلحظ فيه هذه العالمية ما بين أول آية بعد البسملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وآخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس: 1-3].

فهذا هو القرآن يتحدث عن الله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أو ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ لا رب العرب ولا رب إسرائيل! كما تقول التوراة.

ونداءات القرآن المُوجّهة من الله تعالى، لا تحمل أي طابع عنصري أو إقليمي أو طبقي، لأنها إما موجهة إلى (الناس) كافة، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ﴾ [الحجرات: 13]. وقد وُجّه هذا النداء إحدى وعشرين مرة في القرآن.

ومثله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ وقد وُجّه مرتين في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

[الانفطار: 6]. ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

ومثلها ما وجه إلى ﴿بَنِيَّ آدَمَ﴾ مثل: ﴿بَنِيَّ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. وقد جاء هذا النداء خمس مرات في القرآن.

ومثلها ما وجه إلى «العباد» مضافين إلى الله تعالى بياء المتكلم ﴿يَعْبَادِي﴾ وهي إضافة تشريف وتكريم مثل: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56]. أو إضافة إيناس وتقريب، مثل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]. وقد وجه هذا النداء في القرآن خمس مرات.

وإما مُوجَّهَةً إلى أهل الشرائع السماوية السابقة من اليهود والنصارى. وقد اختار القرآن صيغة تؤنسهم وتقربهم، وهي ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ﴾ مثل: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64]. ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 71]. وقد تكررت اثنتي عشرة مرة.

وإما مُوجَّهَةً إلى (الذين آمنوا). وهذه الصيغة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لم تُعرف إلا في القرآن المدني، بعد أن أصبح للمسلمين جماعة وكيان مستقل. وقد جاءت في القرآن أكثر من تسعين مرة.

وهذه النداءات كانت جديدة على العالم، وقد قرعت سمع الجزيرة العربية لأول مرة، بعد أن كان الناس لا يتنادون إلا بـ (يا بني فلان) أو (يا عرب) أو (يا عجم). أما النداء بصيغة الإنسانية أو الإيمان، فلم يكن لأحد به عهد.

وقد أعلن القرآن عالميّة دعوته، وأعلن الرسول الكريم عموم رسالته من أول يوم. فهي رسالة عامة في المكان والزمان، شاملة لكل شؤون الإنسان.

وأول ما أتاحت الفرصة للرسول الكريم بعث برسائله إلى ملوك العالم وأمرائه: قيصر الروم، وكسرى الفرس، ونجاشي الحبشة، وأمراء الشام ومصر وغيرهم، يدعوهم إلى أن يُسَلِّمُوا لِيُسَلِّمُوا في الدنيا والآخرة، وتسلّم معهم شعوبهم؛ وإلا تحمّلوا إثم هذه الشعوب التي يخكمونها، ويحولون بينها وبين الهداية.

وقد ختم رسائله إلى قيصر وأمراء أهل الكتاب بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

دعوى بعض المستشرقين خصوصية الدعوة بالعرب

هذا، وقد زعم بعض المستشرقين: أن محمداً ﷺ لم يفكر في المراحل الأولى للدعوة - أي طوال العهد المكي، وسنوات من العهد المدني - في عالمية الدعوة، إنما كان ينظر إليها باعتبارها دعوة للعرب، أي لمكة ومن حولها من القبائل في جزيرة العرب. ولم يفكر في دعوة الأمم الأخرى إلا بعد أن استتب له الأمر في المدينة، وصالح قريشاً صلح الحديبية المعروف، وأخذ يكتب رسائله إلى كسرى وقيصصر والمقوقس والنجاشي، وغيرهم.

وقد اعتمدوا في تأييد هذه الدعوى على بعض آيات من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: 7]. وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92].

ولو تتبع هؤلاء ما ورد في القرآن حول هذا الموضوع، لوضح لهم الحق ووضح الصبح لذي عينين - لو أرادوا معرفة الحق - ووجدوا من الآيات الصريحة الناطقة بعالمية الرسالة المحمدية ما يدحض كل دعوى مخالفة، ويزيل كل ريب أو سوء فهم ناشئ من النظر الجزئي في بعض الآيات التي لا تدل على ما أرادوا.

والعجيب أن الآيات المصروفة بعالمية الرسالة كلها من القرآن المكي بإجماع أهل العلم مثل قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: 87].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الفلم: 52].

﴿قُلْ يَتَّبِعْهَا النَّاسُ لِي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكَ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28].

ونحوها من الآيات:

وأيدها قوله ﷺ: «وكان النبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»⁽¹⁾.

أما بعض الآيات مثل آية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، وآية ﴿وَلْيُنذِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فهذه مراحل الدعوة، والتدرُّج فيها. أما عالمية الدعوة، فلا يَنْطَرِّقُ إِلَيْهَا رَيْبٌ وَلَا اشْتِبَاهٌ، والنصوص صَرِيحَةٌ قَاطِعَةٌ فِي شَأْنِهَا، وَيَكْفِي مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْهَا.

ترجمة معاني القرآن إلى غير العرب:

وإذا كان القرآن عالمي الوُجْهَة - وهو في الوقت نفسه عربي اللسان - فالواجب على العرب من أمة القرآن ترجمته إلى غير العرب، نشرأ لدعوته، وتبليغاً لرسالته، حتى لا تكون للناس عليهم حُجَّةٌ.

(1) متفق عليه من حديث جابر كما في اللؤلؤ والمرجان (299).